حول مائدة العيد

فى مثل هذا الشهر العربى من كل عام ، تهب على العالم الاسلامى دكريات معطارة ، وتطوف بالأذهان صور كريمة ، تثير فى المسلمين عوامل الشوق إلى رؤية مبعث هذه الذكريات وآثارها ، كرمز لأسمى معانى التضحية والوفاء ، وأجل مثال للاخلاص والفداء ، رجل من البشر فيه حنان الوالدين وعطفهم ، يؤمر بحمل طفله الوحيد وزوجه الطهور القانتة ، إلى واد أجدب محرق ، لا ماء فيه ولا نبت ، فيذعن لأمر ربه راضيا ، ويدعهم فى هذا المكان الموحش دون زاد أو ميرة وقلبه يدق دقات العطف والحنين ، فيكاد الأفق يردد صداها ، لا يملك إلا أن يشرع بوجهه ضارعا إلى الله يقول : " رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " ثم ما كان يملك إلا هذا وإلا الإذعان والرضاء للحبيب الأعلى أسلم له القلب والجسد والمشاعر والعاطفة . وخلف بعده هذا مثالا للعالمين ونورا هاديا للجاهدين المضحين فى سبيل عقائدهم وجهادهم لما يحبون ويؤمنون .

ثم أمره الله بعد حين بذبح ولده هذا بعد أن شب ويفع ، فلم يكن من الوالد إلا الطاعة ومن الولد إلا أن قال : " يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ " .

بمثل هذه المثل تتشبب النفوس الكريمة ، وبمثل هذه الآيات تهتاج القلوب المؤمنة . ولمثل هذه الصور يقف الناس صامدين إعجابا وتقديرا .

وإذا كان اسم شجرة يرد ذكرها فى رواية حب عميقة . أو تاريخ فاتح أو زعيم أو أديب أو مخترع أو فنان — يدفع الناس إلى السفر لرؤية هذه الشجرة والجلوس تحتها قيلا ، أو لزيارة منزل أو قبر شخصية من هذه الشخصيات والوقوف أمام جدثه أو ما بقى من أدواته وآثاره وقفة الإجلال والإعجاب ، تتناهبه الذكريات وتنوشه عوامل الجذل بتوفقه إلى هذا الموقف ، فكيف بهذا المثل الفدائى الذى لا ضريب له فى تاريخ البشرية ، ولا يمكن أن يدانى عن قرب أو بعد ؟ ! .. ألا يكون شوق الناس إلى هذه المواطن أحر وتدافعهم نحوها أشد ، استذكارا لهذا الماضى النبيل فى ظل آثاره ، وتلبية لنداء الله يقول : " وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم ... ".

أوليس جلال هذه الذكرى من القوة والمجد بحيث تدعو الناس فى أنحاء العالم الاسلامى إلى الاحتفاء بها احتفاء قوامه التعاون والتواصل، يؤكده الاحسان والبر والتصافح والتحاب وصلة الأرحام .

يولى المسلمون وجههم شطر البيت الحرام على هيئة دائرة محيطها العالم الاسلامى ومحورها الكعبة، يذكرونها خمس مرات كل يوم وكلما توجهوا شطرها تاقت نفوسهم اليها وألح الشوق إلى رؤيتها، فاذا وفق البعض لذلك جاذبتهم حتى تضيق هذه الحلقة بهم فيلتقوا عندها إخوة متحابين، فتكمل لهم الوحدة الاسلامية فى كل شىء، إله واحد، نبى واحد، كتاب واحد، قبلة واحدة، تدانى عشاقها واقتربوا حتى التقوا على بساط عرفات فى زى واحد غير مخيط، ولون واحد لا يتغير، لا يعرف منه السيد من العبد، ولا الأمير من السوق، لترتفع الفوارق، وتحل الأخوة الصحيحة مكان التفاخر بالأجناس والأنساب، والتنابز بالأحساب والألقاب، والتسامى بالآناف والرقاب، ثم يهبطوا من عرفات إلى ساحة (منى) ، ثلاثة أيام لا جهد فيها ولا عناء ، فرصة منحهـا الله للمسلمين ليأتمروا ويتدارسوا ويراجعوا ماضيهم ويرسموا خطوط مستقبلهم فى دائرة أوسع ومجال أفسح قوامه القومية الاسلامية ، وقضيته الكبرى مشكلة المسلمين فيما بينهم؛ وفيما بينهم وبين غيرهم، وهذا معنى قوله تعالى "ليشهدوا منافع لهم" وهذا هو العمود الفقرى للحج بعد أداء الفرائض والخروج من أدران الذنوب، ولعل ذلك المفكر الانجليزى قد أصاب هدفه يوم قال : " سيظل الاسلام صخرة تتحطم عليها سفن التبشير ما بقيت له قواعد أربعة يذود منها عن حماه : القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة، ومؤتمر الحج السنوى العام " .

فهل مثـل مظاهر الحج عبادة ومعاملة واقتصادا واجتماعا وبرا وصدقة — شأن غير جدير بمظاهر العيد الأكبر يوزع القادرون فيه لحم الأضاحى على الفقراء والمعدمين ، بهجة بالفداء وترجيعا لصدى الذكريات الخالدة فى رضوخ ابراهيم الخليل، واستسلام ولده اسماعيل، وجلد (هاجر) ضيف الصحراء الصبور، فى سبيل إيمانهم، وعقيدتهم. انه انتصار على عواطف الحب، وحنين القلب، وإغراء الشيطان والنفس، جدير بمهرجان العيد ومظاهراته احتفاءا، وصلاة، وتكبيرا ، وبهجة وسرورا ، وفرحا وحبورا .

صحيح أن للمسلمين من يوم الجمعة عيدا وأن الرسول الكريم قال فيه "إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه وهدانا الله تعالى له وأخره الله لهذه الأمة وجعله عيدا

لهم فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتابين لهم تبع " ولكنه يوم واحد فى كل أسبوع وما يتكرر فى كل أسبوع لا يكون له من حرارة الشوق وشغف الحب ولهفة اللقاء ما لغيره مما يفد مرة فى كل عام ، ولذلك سن أن يكون العيد ثلاثة أيام أو أربعة إشباعا لبهجة النفس من معالمه ، وإرواء لعطش القلب من مظاهره، وراحة من عناء الكفاح، وفسحة من ضيق الزمن ، وإدخارا لجهد المستقبل .

اجتماع الجمعة لا يكون فى غير المساجد ، واجتماع العيد لا يقوم — سنة مؤكدة — الا فوق بساط الصحراء ، ما لم تقف دون ذلك ضرورة المطر أو العجز عن السير . وذلك لتتسع جنباتها لأهل المدينة أو القرية جميعا ، وهناك فى حجر الصحراء العذراء يجأر الكل بأصوات التكبير موحدة كأهازيج الملائكة ، وتهتز المقامات كالزرع النضر داعبته النسمات عند السحر ، حتى إذا نادى المنادى "الصلاة جامعة" استوت الصفوف، وتلاقت المناكب، وشخص الكل قبلة البيت العتيق، وتصاعدت أنفاس الضراعة تخفق لها الضلوع، وتتهافت لها الجوارح بالخشوع ، حتى إذا أتموا صلاتهم صعد إمامهم فوق مرتفع ليعظهم، ويبعث فيهم شعور الإخاء . ويذكى بينهم عاطفة الحب ، ويغسل ما عساه يكون قد بقى من آثار التدافع فى الحياة فتتصافح الأيدى ، وتتسامح القلوب ، ويعود كل من طريق غير الذى جاء منه كما هى السنة ليلتقى بوجوه جديدة ، ويستطيع أن يصافح أكبر عدد ممكن فى هذا اليوم ، وقد يكون بينهم الحبيب الوامق ، والمعرض الكاشح ، والجار العاتب ، وذو الرحم الجافى (فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ) .

وماذا يبقى من أدران الحياة ، إذا ساد بين الناس الصفاء ، وقام التعاون المأمون مقام التدابر الغارب ، وحل التنافس البرىء محل التدافع الكريه ، وقرت العبطة المسامحة مقام الحفيظة المعتمة، وغسل الحب الوادع مكان الصفينة الدفينة، فيتجه التفكير نحو الصالح العام وتتهيأ النفوس لبحث وسائل الرقى الاجتماعى والخلقى فى القرية أو المدينة، وتجتمع القادة والزعماء وتشكل منهم اللجان المختلفة لتحقيق ما استقر رأى المجموع عليه ، وما كان ذلك يتاح لهم لولا اجتماع العيد .

فإن كانت مشاكل البعض بحيث لا تمحوها بسمات العيد وغمرة التهانى وأصداء التكبير فأى مجال للتصالح أكثر سعة وأرحب جانبا من مجالات العيد ، وهكذا يدعو الله أشراف القوم وسادتهم إلى ذلك فيقول :

(لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا).

وما تسامح الدين فى مخالفة لبعض آدابه تسامحه مع هؤلاء المحكمين فى مجالس الصلح والداعين إليه ، فقد أجاز لهم الكذب وأباحه أملا فى الوصول إلى ثمرة الصلح وإزالة مفاسده قتلا للفتن وإبادة للشرور ؛ قال الرسول صلى الله عليه وسلم " ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ، فينمى خيرا ، الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ، ألا فإن الحرب خدعة ، ويكذب بين اثنين ، فيصلح بينهما ، ويكذب لامرأته ليرضيها" . وفى حديث آخر : "أفضل الصدقة إصلاح ذات البين" .

وإذا دعا الاسلام الى الإغضاء والتسامح بين الأبعدين — فدعوته الى مثل ذلك آكد بين الجيران والأقربين ، فالجار للجار صدى صوت اللهيف ، وكهف اللاجئ ، وحرز السر ، وسلوة المحزون ، ومرآة الخذلان ، وخلية المجتمع ، وبه وبأمثاله تتكون الأسرة الإسلامية ، وتتوثق العروة الانسانية . ولخطورة مركزه فى المجتمع ، راح رسول الله يوصى ويلح فى الوصية به فقال " لازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

فكيف يمر العيد بهذه الخصومة كما تمر بقية الأيام ، وما معنى المعايدة ، والتهانى إن أغمضت الجفن على مثل هذا القذى ، وأهلت تراب الاهمال على هذا الدخن . وما الأسرة إلا المدرسة الأولى فى حياة الجيل ، والقالب الذى تصب فيه تربية النشء وخلقه ، وهى الحلقة الأولى فى سلسلة المجتمع ؛ فتعرضها لما يمكن أن يتعرض له غيرها من جفوة وشقاق ؛ يعرض المجتمع للانحلال والتفكك والاضمحلال ، وماذا نقول فى علاقة سمت وارتفعت ودنت وتدلت حتى حازت مكانة التوحيد عند الله فقال :

" وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا " " وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ" .

وقال صلى الله عليه وسلم "ليس الواصل بالكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها" ومتى تكون هذه الصلة إن لم تكن على مائدة العيد ؟ ؟

ولعل من أجمل مايروى عن معالى وزير الشئون الاجتماعية الحالى ، جلوسه مجلس القضاء كلما ذهب إلى قريته "غزالة" — لفض الخصومات وإصلاح ذات البين وإزالة مايعلق بالنفوس من الشحناء والبغضاء ؛ فأحيى بذلك سنة الصدر الأول من الصالحين ؛ فأخلق به وزمام الشئون الاجتماعية بيده — أن يدعو رسميا إلى تشكيل لجان للصلح فى البلاد تباشر مهمتها بصفة عامة وفى المواسم الاسلامية بصفة خاصة ؛ وترفع تقاريرها بذلك إلى ولاة الأمور .

أما دور العيد فى حياة الأطفال الخلقية والتربوية — فأمر له أثره وخطره العميق ، فالطفل الذى يحب بعواطفه ويفكر بأمعائه ، تثور فى نفسه عوامل التساؤل ،حين يقدم له طعام أو شراب أكثر وأجمل مما تعود ، وحين يحاك له جلباب جميل أو تهدى إليه دمية طريفة ، وحين يسمع ويرى البيت والشارع فى حركة غير عادية ؛ والمربى الحكيم هو الذى يستطيع بين هذه المعالم أداء مهمته وتبليغ رسالته على الوجه المناسب لعقلية الطفل واستعداده فينشأ نشأة قوامها العقيدة والتفكير ، لا الوراثة والتقليد .

وللأعياد أثرها الهام فى إنعاش الاقتصاد القومى وسرعة دورته ، فأى مسلم لا يعد للعيد ثيابه ولا يدخر له مستلزماته ، فيسهر لذلك مغزل الغازل ومنوال البزاز وإبرة الخائط وموقد الكواء وعين التاجر والقصاب والبدال .

ولما للأعياد من أثر فى دورة الاقتصاد تعمد الأمم المتمدينة إلى تحيل المناسبات وتلمس الأسباب للدعوة إلى أعياد قومية أو تعاونية أو اجتماعية ، ثم تثير حولها من أنواع الدعوة فى الصحف والنشرات واللاسلكى مايلفت إليها الأنظار ويشوق إليها النفوس ، فيفد إلى ميادينها أكبر عدد ممكن ، فتنتعش حركة السكك الحديدية والمركبات المختلفة والمطاعم والنزل والمتاجر والملاهى .

فلم لا يكون هذا الانتعاش عنصرا من عناصر مهرجان العيد والفرح بلقائه ؟

هذه بعض آثار العيد فى حياة المجتمع كما ينبغى أن تكون لا كما هو كائن ولا كما يسميه الأغيار عيد اللحم ، كأن المسلمين فى نظرهم لا يهتمون فى مثل هذه الأعياد إلا بملء أمعائهم من أطعمة هى ليست فى طبيعتها إلا مهرجانات التوفيق وأعياد الاحسان وأسواق الاقتصاد ومواسم الخير للمجتمع .

بل هذا ما يجب أن يحدث فى أيام العيد ، فمن أعرض الناس عنه وأهملوه — إلا فى القليل النادر — فهذا ما يدعو إليه الاسلام وما يجب أن يسهر ولاة الأمور على إنفاذه وتحقيقه ، وإذا كان ثم مسئول مسئولية مباشرة فهى وزارة الشئون الاجتماعية ، وفقها الله فى تحقيق إمجاد الاسلام وسعادة المجتمع .